أنطون تشكوف *

(الأديب الروسى)

فى ١٩ يناير سنة ١٨٦٠ ، ولد أنطون تشكوف ببلدة تاجازوج فى أسرة فقيرة تافهة التاريخ ، إذ كان جده عبدًا لأحد الموسرين ، وقد اشترى حريته بما وفره من مال سيده . ونشأ ابنه (والد أنطون) مقتصدًا مدبرًا ، فاستطاع أن يترقى فى وقت قصير من كاتب حقير إلى صاحب حانوت وعميد أسرة مكونة من أربع أخوة وأخت واحدة . وكانت الأسرة محافظة شديدة المحافظة ، عظيمة الرعاية للتقاليد الدينية ، فتلقى الأطفال تربية دينية عن الأب وعن الأم ، وفى البيت وفى الكنيسة ، وبلغ من شدة غرام الوالد بموسيقى الكنيسة أن ألحق أطفاله جميعًا بزمرة المنشدين ، فاختلطت أصواتهم بأصواتهم الرفيعة وهى تنشد الأناشيد الدينية . على أن هذه التربية الدينية وما بُذل فى سبيلها من شدة وعناية لم تأتِ إلا بعكس ما رجى منها ، وقد كتب أنطون فى كهولته يقول : «عندما أستعيد ذكرى طفولتى ، تبدو فى مخيلتى مروعة . وإنى الآن بلا دين . ولما كنت أغنى وإخوتى فى الكنيسة كان الناس يلقون علينا نظرات إعجاب وينفسوننا على والدينا ، ولكن كان يجرح نفوسنا

* السياسة الأسبوعية ، ٨ من مايو سنة ١٩٣٣م .

إحساس ذلة كأننا من عبيد السفن الصغار » ؛ ولكن هذه النشأة لم تضع هباء لأن الترتيلات الجميلة نقشت آثارًا خالدة فى نفس تشكوف ، وأشربت قلبه بالهيام بها ، مما كانت نتيجته ميل الفتى إلى اللغة الروسية واهتمامه بها .

ولما شب قليلا التحق بمدرسة الأبريشية ، وهنالك كابد مُدَرِّسًا شديد القسوة منحل الفطنة والمعرفة ، بما أضاع عليه هذا العهد السعيد ، وربطه فى ذاكرته بالجفاف والفقر ، وجعله يكرر دائمًا أنه ليس له طفولة !

ثم التحق بمدرسة الآجرومية ، وفى بادئ عهده بها عُرف بالكسل والغباء ؛ وإنْ كان حبيبًا إلى النفوس ، فذلك لنأيه بنفسه عن ميدان المنافسة ولابتسامة ساحرة لا تفارق شفتيه ، إلا أنه فى أواخر عهده بهذه المدرسة حدث انقلاب فى نفس الفتى ، فقد زال خموله وانفض عنه الكسل ، وصقل مخه وانحسر عنه الغباء ، وتدفق فى عروقه دم النشاط والحيوية من غير أن يسلبه ذلك روح الفكاهة ، فبقى مرحًا يقرأ الروايات بصوت مرتفع حتى يثير الضحك فى الصدور ، ويغير من صوته ويحاكى مختلف الأصوات ، ويبدل من ملامح وجهه حتى لا يكاد يُعرف ، وإخوانه من حوله يدهشون ويُسَرُّون .

ثم كان أن التحق بمدرسة الطب . وكان أن عبس الحظ لأبيه ، فهوى إلى قرار الخراب حتى اضطر إلى العمل ككاتب بسيط ، ولكنه لم يَكْفِ الأسرة ، بما اضطر معه الفتى أن يعمل لينقذ الأسرة من الموت

جوعًا . وفى الحق لقد كانت هذه الفترة من حياة الأديب من أشق ما عاناه فى حياته ، فهو طالب طب ، وأنت تدرى ما يقوم به طالب الطب من واجبات شاقة ؛ وهو كاتب قصصى يؤلف لتسلية القراء بعد الغذاء ، وأنت تعلم ما يعانيه الكاتب إذا كان دافعه إلى الكتابة التكسب وسد العوز لا الإلهام والحب ، ثم إنه يعيش فى حى حقير تختلط ضوضاء الأطفال بصراخ الفتيان . . مثل هذه الحياة أقرب إلى الفناء والعدم ، لأنّا لا نتذوق جمال الوجود ونحس بالحياة إلا فى الساعات التى نقف فيها قليلاً لنتأمل ونتملى . وكان يعلم أن أدبه غَثٌّ ، وقد حاول أن يكتب كما يريد ويتمنى ولكنه لم يلق تشجيعًا مّا .

وأخيرًا رضيت الحياة أن ترفع عنه بعض أثقالها ، فنال دبلوم الطب والتحق بإحدى المستشفيات للتمرين ، ولأول مرة أتيح له التعرف إلى لون من ألوان الحياة وهو الحياة الريفية ، واختلط بكثيرٍ من الريفيين والضباط ما كان له كبير الأثر فى خياله فيما بعد ؛ ثم طلبه مدير جريدة «نوفوفريميا » ليكتب له قصصًا محترمة ، ولعله سُرَّ غاية السرور لتخلصه من كتابة هذه القصص التافهة ، ونشط هنا لعمله نشاطًا لفت إليه نظر بعض كبار الأدباء ، حتى أن خريجورفتش كتب له يقول : « إن لك مَلَكَةً حقيقية ، مَلَكَةً ترفعك إلى مكان يسمو على دائرة أدباء الجيل الحديثين » ؛ فبعد أن كان غرضه المال أصبح يتطلع إلى الإجادة الفنية حتى فاز بجائزة بوشكين ، وأخذ صيته فى الذيوع ، إلا أن الإجهاد

المستمر والعمل المواصل نالا من صحته كل منال وأنهكا قواه ، فبدت عليه علامات السل ! وكم كان ارتياحه لذلك عظيماً ! ولكنه أخفى الأمر وكتمه فى صدره حذرًا أن يتسرب إلى علم والدته التى يشفق عليها من الحزن والألم . ولم يكن هذا ولا غيره بمانعه عن مواصلة عمله ، فكتب للمسرح روايات ناجحة مثل « إيفانوف » و« الخال فانيا » ، وقد صُدَّ عن التأليف للمسرح زمنًا بسبب سقوط إحدى رواياته ، ولولا أنْ أعيد تمثيلها فى موسكو ولاقت نجاحًا باهرًا لَـحُرِمَ المسرح من قلم تشكوف .

زادت آفاق حياته وزخرت بالتجارب والفهم الصحيح للأمور ، وتحسنت أحواله المالية فرحل إلى موسكو ، إلا أن المرض كان يغالبه مغالبةً شديدة حتى انكشف أمره وعلم به مَن كان يشفق عليه أن يعلم به ، واضطر إلى نفى نفسه من وطنه الحبيب إلى جنوب فرنسا وهو أسيف ، وهنالك بقى زمنًا يكابد آلام المرض ويعالج لواعج الشوق الحنين إلى موسكو وأناس موسكو . ولما أحس بتحسنٍ فى صحته ، سارع بالعودة إلى الوطن ، ولأول مرة نرى حياته تصطبغ بذلك اللون الوردى الجميل ، فقد عرف ممثلةً هى أولجاليو ناردوفنا ، وألف الحب بين قلبيهما ، فتزوجا وساحا سويًّا ينعمان بالحب . وعاد المرض يطارده ويحرمه من الطمأنينة ، وعاد هو إلى منفاه تاركًا زوجه ترجع إلى موسكو لتباشر عملها . وتستطيع أن تتصور حاله وهو صريع القلب والصدر بعيدًا عن وطنه .

واشتدت عليه وطأة المرض ، فرحل إلى ألمانيا حيث لحقت به زوجه ؛ وتحدثنا الزوجة عما كان يعانيه زوجها من الآلام ، وتشير إشارة خاصة إلى بقاء الصفاء مخيماً على روحه التى احتفظت بفكاهتها ودعابتها . . وهكذا لم تملك أن تضحك له وهى جِدّ جَزِعَة عليه . وأخيراً هزم ذلك الجسم الريفى القوى أمام المرض الخبيث ، وقُضى صاحبه الأديب .

كان فى طبيعة تشكوف ما يمنعه عن الإبانة الصريحة عن ذات نفسه ، فلم يخلّف لنا مذكرات شخصية تنفع المؤرخ النفسانى ؛ حقًّا أن رسائله كثيرة وكأنها ـ فى الغالب ـ تتناول مواضيع عامة أدبية وفلسفية ، وعليه فالمرجع الثقة لمن يريد أن يتعرف إلى هذه النفس الأدبية هو مؤلفاته وبعض رسائله الخاصة . ومن الحق علينا أن نتكلم عن إيمانه ، فإن إيمان الرجل أو عدمه أدق مقياس يزن أفعاله وتصرفاته ، وتشكوف يقول صراحةً إنه فقد الإيمان برب الكنيسة وهو صغير . وطال عهده بهذه الحرية الدينية وبقى يلهو ويعبث ويعمل من غير ما يكدر صفو قلبه بأسئلة الإيمان الملحة التى قد تبلغ حد العذاب ، وكأنك بعد ذلك تحس بالجد فى كتابته فكأن نظرته إلى الحياة حالت ، وكأن الحياة فى نظره كبرت ، وتتوالى أسئلته عن الحياة والموت وتكاد تلمس المرارة التى يفيض بها قلبه المرهف الحس ، وخرج عن قبة نفسه ليواجه المشاكل الاجتماعية الكثيرة ، واستحوذ عليه اهتمامٌ كبيرٌ بها ، أغراه بالتعرض لأهوال السفر لمجرد التعرف إلى أناس جُدُد و أخلاق جديدة . ويظهر لنا اهتمامه هذا

واضحًا فى حادث تنازله عن لقب العضوية بأكاديمية العلوم احتجاجًا على إلغاء انتخاب ماكسيم جوركى بسبب مذهبه السياسى ، وقد اهتم كبقية الكُتّاب الروس بمسائل العمل ؛ ونحن ننقل هذه الكلمة له لتعلم منها شيئًا عن خيال الإصلاحى . قال : « إذا كنا جميعًا ـ سواء من يسكن المدن أو من يقيم فى الأرياف ـ نرضى بأن نقتسم فيما بيننا العمل الذى يبذله البشر فى إشباع حاجاتهم الطبيعية ، فإن أحدًا منا لا يمكن أن يعمل أكثر من ساعتين أو ثلاثة كل يوم . ونبقى بعد ذلك أحرارًا بقية اليوم ، ونهب هذا الوقت للعلوم والفنون . كلنا نبحث عن الحقيقة وعن معنى الحياة هنالك ؛ وإنى لواثق أن ينكشف لنا وجه الحق ، ويستطيع الإنسان أن يخلص نفسه من فزع الموت الدائم الذى يُصْلِيه نار العذاب » .

وفى النهاية اهتدى الأديب إلى الإيمان ، وكان إيمانه بالإنسان . . بمستقبله وبرقيه ، وإنك لتحس بإيمانه هذا إذا قرأتَ له إحدى رواياته ، ويتأكد إحساسك كلما أمعنت فى القراءة .

نعم ، إن حياة الإنسان الواقعية تثير سخطه ورحمته ، وهو دائمًا يصور شقاء الإنسان ويتهمه بأنه السبب فى كل ما يحيق به من أسباب الألم بما تفيض به نفسه من ميول للتشاحن والبغضاء وعواطف الأثرة والشر ، ويخيل إليك وأنت تقرأ بعض رواياته أنك تقرأ « البيت الكسير الفؤاد لبرنارد شو » إذا لاحظت الموضوع والغرض ؛ فهو يتخيل العالم أو

أوروبا فى أسرة كل فرد من أفرادها مصاب بما يضلله عن طريق السعادة، فإذا قاربت الرواية النهاية سمعتَ نداءً عذبًا إلى السعادة وتفاؤلاً صريحًا بالمستقبل السعيد .

على أنه بقى وسط هذه المذاهب الاجتماعية والمشكلات الإنسانية فنانًا خالصًا لوجه الفن ، وقد قال فى ذلك : « الميل جذوره فى عجز الإنسان عن أن يعلو عن التافهات من الأمور . الفنان ينبغى أن يبقى شاهدًا نزيهًا فقط . لستُ حرًّا ولستُ محافظًا ولستُ مصلحًا . إنى أحب أن أكون فنانًا فقط » .

ثلاثة من أدبائنا *

تكاد نهضتنا الأدبية تودّع عصر الانتقال لكى تستقبل عصرًا جديدًا ثابت الأسس واضح الأغراض ، ولقد قام بهذا العمل العظيم ـ عمل الانتقال والتوجيه ـ أدباءٌ كبار ما زالوا يغذّون أدبنا بنفثاتٍ حارةٍ من أرواحهم السامية ، ولو أردنا أن نوفى كلاً منهم حقه لطال بنا المقال إلى غير نهاية ، ولكنما نريد أن نتكلم على ثلاثة منهم نرى أنهم الممثلون لنهضتنا فى نواحيها المختلفة ؛ ولسنا نتحدث عنهم كنقاد أو مؤرخين ، وإنما كقراءٍ اتصلت نفوسهم بنفوسهم زمنًا طويلاً ، وتأثرت بها تأثرًا كبيرًا . هؤلاء الثلاثة هم : العقاد ، وطه حسين ، وسلامة موسى .

● العقاد

العقاد هو رجل البداهة ، ونقصد بالبداهة الفطرة البصيرة أو الإحساس الصادق أو الطبع السليم ، ونقصد بذلك تلك الموهبة الطبيعية التى تنفذ إلى الحقائق فتعرف ماهياتها ، وهى درجة من الكمال يبلغها الصوفى بالاجتهاد ، ويحوزها الفنان بفطرته وطبعه ؛ وإذا أردتَ أن تتحقق مما نقول فاقرأ شعر العقاد .

* المجلة الجديدة ، فبراير ١٩٣٤م .

والعقاد فى نظرنا شاعر فنان قبل كل شىء . . فمن أهم مميزاته أنه ليس قشورًا سطحية ، وليس نغمًا لفظيًّا ، وإنما هو معنى عميق تذوقه وتحسه ، وتعرف فيه روحًا حيًّا يكاد يتحرك ويتغير كلما راجعتَه ؛ وهذه خواص النفس التى يعجز العقل والذكاء عن أن يلجأ بابها ، والتى تنفذ إليها البصيرة الحساسة المرهفة فتلتقطها بما فيها من حياة وغموض .

وأثر الفطرة السليمة يظهر فيما يدعو إليه العقاد من تجديد فى الشعر والأدب ؛ والتجديد عند العقاد ليس هو التجديد عند غيره ، فنحن نفهم من التجديد عادةً أنه الدعوة لمذهب جديد على حساب مذهب قديم ، كالدعوة إلى الرياليزم أو الإيديياليزم وهكذا . . ولكنّ العقاد لا يدعو إلى مذهبٍ خاص ، وإنما يثور على التقليد والفناء فى الغير ، ويدعو إلى تحرير العقل والشعور ، اعقل بعقلك واشعر بشعورك ، ومثل هذا المبدأ يتناقض مع الدعوة إلى مذهب معين ، لأن الدعوة إلى مذهب معين هى نوع من التقليد ، وإنك إذا قلدتَ العقاد فلست من أتباع العقاد ! وهذا الرأى يجعل من الفن حياةً كهذه الحياة المتجددة المتغيرة المطردة السير إلى الأمام .

والعقاد يسمو بالأدب إلى الذروة من الكمال والتبجيل ؛ وهذا طبيعى ، لأن مَلَكَتَهُ مَلَكَةُ المتصوف . . وكيف تطلب من المتصوف ألا يبجّل معبودَه الذى يوحى إليه بأسرار الغيب ؟

● طه حسين

أما طه فهو رجل الذكاء ، وهو يظهر فى مكانتين من أهم مكاناته : البساطة والسخرية ؛ وإنك لتقرأ لطه حسين فلا تعثر على كلمة شاذة أو جملة معقدة أو تعبير مُلْتَوٍ أو فكرة غامضة ، وإنما تفهم كل ما يريد أن يُفهمك إياه وأنت مرتاح سعيد فى نشوة وصفاء ؛ وليست هذه السهولة مما يدل على سهولة الموضوع الذى يعالجه الكاتب أو على ابتذاله ، وكأنها دلالة على الذكاء النافذ . . الذكاء الرياضى ، أو الذكاء الفرنسى ـ إنْ شئتَ ـ الذى لا يطيق الغموض أو التعقيد ، والذى يعطى محصوله بسيطًا بساطةَ البديهيات الرياضية ، وإنْ كان تمثيله وهضمه من أعسر الأمور ، فهذا هو السهل الممتنع حقًّا .

أما السخرية فشديدة الوضوح فى أسلوب طه وتصويره للأمور ، وهى فى ماهيتها جَمْع للمتناقضات عن طريق الإشارة الخفية واللمحة البعيدة ، وقوامها قوة الملاحظة والانتباه الشديديْن .

والذكاء يؤدى للشك ، وقد كان الشك أساس البحث عند طه حسين ، ذلك البحث القيم الذى صار أنموذجًا للمفكرين ، والذى أحدث أثرًا كبيرًا فى بعث الآثار الأدبية الإسلامية .

● سلامة موسى

يمتاز الأستاذ سلامة بتفكير عملى ، ومن شأن هذا التفكير ألاّ

يكترث كثيرًا للنظريات ، وألاّ يركن إلى النظر المجرد والتأمل الفنى ، وكل ما يهمه من النظرية أن يطبقها ، لأن همه منصب على الحياة وعلى الكمال فى هذه الحياة؛ والإنسان لا يذكر الأستاذ سلامة حتى يذكر داروين ونظرية التطور ؛ ولهذه النظرية أثر بالغ فى نفس الأستاذ ، وهى أصل مُثُلِه العليا للإنسان والحياة الاجتماعية ؛ وأهم شاغل له هو الإصلاح الاجتماعى ، وله جولات عظيمة وتضحيات كبيرة فى سبيل التجديد الدينى وتحرير المرأة ورقى الفلاح والعامل ، وقد كان الداعى الأول إلى الوطنية الاقتصادية ، وكان لدعوته أثر كبير فى نفوس الشبان مما نرى مظاهره قوية حية يطرد نموها يومًا بعد يوم . وعلى العموم فهو مجدد أدبى كبير ، إلا أنه لا ينظر للأدب كغاية ، وإنما كوسيلة للإصلاح والرقى فى المجتمع والحياة .

وطريقته فى الدعوة ليست عن سبيل المنطق والجدل بقدر ما هى عن سبيل علم النفس ، فهو يقرر ما يريد فى عبارات قصيرة واضحة ، ويكررها كثيرًا حتى تثبت فى النفس وتصير كإحدى عناصرها الموجهة ، ولذلك ترسخ مبادئه فى النفوس وتؤثر فى أعدائه قبل أنصاره .

***

أحب ألاّ تفهم مما كتبتُ أن هذه الميزات التى أضفتها إلى هؤلاء الكُتّاب هى كل ما لهم ، وإنما هى التى تبرز فيهم ؛ وهل ينكر إنسان أن

للعقاد أبحاثًا هى مثال التفكير المستقيم والعبقرية الفكرية ؟ وهل ينكر أحد أن لطه حسين آثارًا أدبية بلغت الذروة فى جمالها وقوتها ؟ وهل ينكر قارئ أن لسلامة موسى مقالاتٍ وكتبًا فى النقد كخير ما كُتب فى هذه المواضيع ؟

أما إذا أردنا التقسيم والتحليل ـ وهو طبع العقل ـ فيحق لنا أن نقول إن العقاد هو روح النهضة الأدبية ، وطه حسين عقلها ، وسلامة موسى إرادتها .